

صفحات لفوية في التاريخ الطبيعي للجزيرة العربية

د . يحيى عبد الرؤوف جبر

تمثل اللغة ، لغة أي شعب كان ، جوانب شتى من تاريخ ذلك الشعب ، وتكشف عن تطوره وازدهاره ، من حقبة لحقة ، وتعكس مراحل ارتقائه في مدارج التقدم والنماء ، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار اللغة يفهمها الواسع ، ممثلة في تراثها الأدبي من شعرونثر ، والفكري من مصنفات في مختلف مجالات العلوم .

وقد يكون للغة دور أكبر من كل ما تقدم، كأن تكشف عن ملامح التاريخ الطبيعي للإقليم الذي يسكنه الناطقون بها وعن غيرها من أوجه النشاط المختلفة، طبيعية كانت أم بشرية، مما لا يتسع المجال لذكره.

ويتصدر اللسان العربي لغات الشعوب في هذه المجالات كلها، فهو أنهض من كل ما سواه في تقديم صور ناصعة لماضي البلاد والعباد، وهو أقدر من كل اللغات على عرض ماضيه، وتقليبه في حاضره ذلك بما يتسنى له من اتصال في الزمان، حيث يقرب تراثه بجذوره في أعماق التاريخ. ويحتفظ بسجلات القرون الخالية على أحسن ما تكون من حال، وهذا فضل لو لم يكن للفتنا فضل غيره لكفاها وأبرز عن مكانتها العالية، إلا أن للفتنا من المناقب وفيها، ومن الفضل كثيرا، وقد نذكر من ذلك على سبيل المثال لا لحصر.

وفي بحثنا هذا، سنعرض جانبها مما تنفرد به العربية، أو قل، يزdan به سجلها، وهو ما يكشف عنه تراثها الأدبي من ملامح التاريخ الطبيعي للجزيرة العربية التي هي الوطن الأم للفتنا العربية منذ أمد لا يعرف أوله، إلى يومنا الراهن. وستظل يراون الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد تفاعلت اللغة في وطنها الأم مع جميع أجزائه، وواكبتها في كل مراحل تكوينها، فجاءت واعية للأحداث، تختزن في ذاكرتها كثيرا من مجريات التاريخ يفهمه العريض، وعلى نحو ما سنكشف عنه في ما يأتي، تبصر مستفيض في

أ - قدسية العربية ممثلة في أن الله عز وجل - اختارها لغة لكتابه الكريم ولدينه الذي ارتضاه لعباده.

ب - اتصافها بالبيئة الطبيعية، واندماجها فيها على نحو لا تجده في لغة غير العربية، وقد يكون في مصنفينا، الألفاظ الجغرافية في التراب العربي حتى نهاية القرن الهجري الثالث، ومعجم ألفاظ الجغرافية الطبيعية^(١) ما يوضح ذلك إلى حد بعيد.

وقد يطول بنا المقام إن نحن مضينا في تتبع ما تمتاز به العربية عن سواها، وإن هذا الموضوع جدير بأن يفرد له بدلا من البحث بحوث كثيرة. ذلك لأهميته واتساعه ووفرة مادته.

نباتي كثيف نسيا، ويختلف المناخ إلى حد بعيد. وتسمى هذه المنطقة في بلاد عسير وما يليها من تهامة باسم «ساق الغراب» نظرا لسواد جبالها، إما على الحقيقة، لأن صخورها بركانية محترقة، وإما لحضرتها، والأول أولى، نظرا لدقتها ووعورتها.

وتغطي الحرّات مناطق شاسعة من أرجاء الجزيرة العربية، فهناك الحرة الرجلاء، وحرة خير، وحرة ليلي، وحرة المدينة، وحرة لبن وغيرها مما نجده مفصلا في معجم البلدان لياقوت الحموي^(١) والمعجم الجغرافي للشيخ حمد الجاسر^(٢)، وغيرها من المصنفات القديمة والحديثة، وكان العرب يتجنبون السير في الحرّات راجلين وراكبين، ذلك لوعورتها، غير أنهم كانوا يلوذون بها إذا دهمهم من العدو من لا طاقة لهم به.

ولو تقينا في المعاجم اللغوية عن الحرة ما هي لوجدنا أنها تجمع على أن الحرة^(٣) «هي الأرض المغطاة بحجارة سوداء ذات تغاريب كأنها أحرقت بالنار» لكننا نتساءل،

لماذا سميت بهذا الاسم، وما هي العلاقة بين دلالة الأصل اللغوي (ح ر ر) الذي اشتق منه اسمها، وبين الأرض المغطاة

سجالاتها ودواوينها، قاصرين اهتمامنا في هذه الصفحات على جانب واحد من تاريخ الجزيرة الطبيعي، ممثلا في ما يحتفظ به سطحها من الآثار التي واكبت تكوينه مما نجد له شاهدا في كلام العرب.

يلاحظ الجواب في جزيرة العرب، وكذلك الدارس في المصنفات الجغرافية قديمها وحديثها أن لسطحها ملامح متباينة، فهناك القلوات المتناصية، فمن بادية الشام في الشمال إلى صحراء النفود فصحراء الدهناء والصمان، فجنوباً إلى الربع الخالي بأبعاده المترامية وأهواله الكثيرة.

وهناك الجبال من العقبة (أيلة) إلى مكة المكرمة فنعما وعدن، وإلى الشرق من هذه السلسلة (جبال السراة) هناك جبال طي، مؤاسل وأجأ وسلمى، وإلى الجنوب جبل طويق، وإلى الشرق على سيف عمان يقع الجبل الأخضر، وهناك واحات كثيرة، ولا سيما في الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية، وفي مناطق الرياض، والمدينة المنورة ووادي الدواسر والبريمي وغيرها.

وتزدان المناطق الجنوبية من سلسلة جبال السراة (من الطائف إلى عدن) بغطاء

منه النار وهو حره تتلفى، وتشع منه حرارة عالية، وتسيل على جوانبه الحمم - الصهير - فما تلبث حتى تبرد وتستحيل حجارة سوداء (قد) أحرقت بالنار حقيقة، وليس كأنما أحرقت، وإنما قال أصحاب المعاجم (كأنما) لأنهم لم يشاهدوها في دور التشكل والتكون.

ومن الجمع بين الحرة والنار على سبيل الإضافة قول النابغة الذبياني:

فران لحضبت فراني غير منفلت

مني اللصاف فجنى حرة النار^(٧)

كأن هذه التسمية هي التي كانت شائعة بأدى الأمر. فسقطت كلمة النار من باب التخفيف والإيجاز.

إذاً، فتسمية الأرض ذات الحجارة السوداء المقترشة «حرة» ناتجة عن المعنى الأصلي للحرة، وهو «البركان النائر» وما يصاحبه من نار وحرارة وصهير متدفق سرعان ما يصبح حجارة.... فهي إذاً من باب تسمية الشيء بأصله، وهو ما يعرف عند البلاغيين بالمجاز المرسل المبني على ما كان من أمر الشيء قبل كينونته الحاضرة. كأن تسمي الإنسان طيناً، واخبر براء، ونحو ذلك.

بحجارة سوداء... كأنها أحرقت بالنار؟

فهل سميت به لأن درجة الحرارة ترتفع فيها؟ لأن المواد السوداء تمتص كمية كبيرة من الحرارة؟ لكن أليس ذلك محصوراً في أوقات بعينها، هي النهار دون الليل، والصيف دون الشتاء، مما يفسد الاستدلال بهذه العلة. إذاً هل سميت لعلاقة أخرى؟ أجل، فالحرة كلمة أطلقها العرب قديماً على ما نعرفه اليوم باسم البركان، وقد كانوا يسمونه «ناراً أيضاً، والنار الحرة (من الحرارة) متقاربتان جداً في دلاليتهما. ومن الأول قول عريرة النيري في «حرة القوس»:

بحرة القوس وجني محفل

بين ذراه كالحريق المشعل^(٨)

والمعنى: «بركان القوس وجانيه جبل محفل حيث نرى أعاليه مستنيرة بمقذوفات البركان الملتهبة، فكأن فيها حريقاً مشتعلًا. وقال آخر في حرة لين:

بحرة لين يبرق جانبها

ركود ما تهد من الصباح^(٩)

حيث الدلالة على البركان واضحة، والبركان في هذين الشاهدين نائر تخرج

وتسمية البركان «نارا» من المجاز علاقته الجرجزية. ذلك أن النار جزء من البركان. وهي أظهر ما فيه. ومن المصادر التي ورد فيها ذكر النار في مقام البركان نص لأبي حنيفة الدينوري نقتبسه من كتابه «الأخبار الطوال» حيث قوله: «كان لذي نواس بأرض اليمن نار يعبدها هو وقومه. وكان يخرج من تلك النار عتق يمتد فيبلغ ثلاثة فراسخ»^(٨). فترجع إلى مكانها^(٩) وذلك قبل أن يتبع اليهودية.

ومن ذلك أيضا ما أوردته المسعودي في خبر صروان حيث قال:

«وهي نار كانت تظهر ببعض الحواري بأقاصي بلاد اليمن»^(١٠) قلت: لعلها نفس النار التي ذكرها الدينوري. ولعلها أيضا. بالمعجمة. صروان. فهي زنة «فعلان» من الأصل اللغوي (ض ر و) وهو ينصرف لدلالة أصلية على معنى الاشتعال. على نحو قول زهير في معلقته وذكر نار الحرب:

من الطويل
..... فتضر إذا خرتموها فتضرم

أي فتشتعل وتتقد.

وكانت «النار» لا تزال نائرة في إحدى الحرات إبان عهد عمر بن الخطاب^(١١) - رضي الله عنه - . كما كانت

سحب الدخان تخرج في عهد الخليفة عثمان بن عفان من بعض الجبال القريبة من المدينة المنورة^(١٢) أما عقب ذلك فلم نعلم أن أحدا ذكر أن شيئا من البراكين قد ثار في جزيرة العرب. كأنها خمدت بإسراقة الإسلام.

وحدثني من أتق به من طلابي أيام كنت أعمل مدرسا^(١٣) في تنومة ببلاد بني شهر من المملكة العربية السعودية أن دخانا يخرج من صدع في موضع من تهامة يقال له «امشودة» أي: الشودة مما يلي القرى السروية الفليية والقذال وربوع قريش إلى الجنوب الغربي من تنومة.

وقد طمحت إلى مشاهدة تلك الظاهرة. ولكني لم أذهب.

وفي تسمية العرب الحرة باسم «الفتن» دليل قاطع على أنهم كانوا يدركون العلاقة القائمة بين دلالة الأصل اللغوي (ح ر ر) بجهومها الجغرافي. ذلك أن (الفتن) في معنى (فعل) بمعنى المفعول من الأصل اللغوي (ف ت ن) بمعنى أحرق بالنار. ومن ذلك قوله تعالى: «إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق»^(١٤) حيث المعنى الذين حرقوهم. والحرة نار

تحرق، وحجارتها كأنها أحرقت بالنار. ومن
الفتين بمعنى الحرة قول الكميت بن
زهد^(١٥)،
والفر

ظعان من بني الحلاف تأوي

إلى خرس نواطق كالفتينا
ولا ندري لماذا نصب، فلعله توصفها
كالقطة والكرة وجمعهما قلين وكرين، فهي
إذا مجرورة بالكاف، وعلامة جرهما الياء
لحاقها بجمع المذكر السالم.

ويتضح مما تقدم أن الجزيرة العربية
كانت تشهد من حين لآخر، ثورة بعض
البراكين هنا وهناك، وإن عهدا بذلك
قريب منا على نحو ما تكشف الروايات
والأخبار سالفة الذكر. وتعود قصة تكون
الجزيرة العربية وتشكل سطحها إلى الزمن
الجيولوجي الثالث، عندما حدث خسف بين
ما أصبح يعرف بقارتي آسيا وإفريقية
محدثاً ما يعرف بحفرة الانهدام^(١٦) أو
الأخدود الإفريقي العظيم الذي يمتد من
منابع النيل جنوباً إلى البحر الأسود شمالاً،
ونجم عنه الصدع العظيم الذي ملأه ماء
المحيط وصار يعرف من بعد باسم البحر
الأحمر، ويمتد هذا الصدع في هيئة انخفاض
شديد يمتثل إلى جانب البحر الأحمر في
تهامة وغور الأردن وسهل البقاع بלבنا.

وقد ظل سطح الجزيرة العربية
يشهد ثورات متوالية من البراكين
والإنكسارات الأرضية حتى تشكل على
النحو الذي هو عليه اليوم. وإن في همود
البراكين^(١٧) ابتداء من ظهور الإسلام لأية
أولي البصائر تدعوهم إلى التدبر والتأمل،
لأن في ذلك مما يحضد عظمة هذا الدين
الذي ارتضاه الله لعباده أجمعين.

ومن الأدلة التي توضح أن العرب
كانوا يشاهدون البراكين ومقذوفاتها، وما
يصير إليه أمرها حيث تكون بادية الأمر
سائلة ثم تشتد حتى تصبح حجارة
وصخوراً صلبة، ما أثر عن بعض الشعراء
من أقوال نعتوا فيها الحجارة بالروطوبة
واللين، وهذان من نعوت صهير البراكين
قبل التصلد، ومن قبيل ذلك ما أنشده ابن
الأعرابي وغيره من قول الراجز في امرأة،
رجز

تسألني عن السنين كم لي

فقلت: لو عمرت عمر الحسل

أو عمر نوح زمن القطحل

والصخر مبتل كطين الوحل

حيث جاء في الخبر عن أبي علي

القالبي^(١٨) أنه سأل أبا بكر ابن دريد -
رحمهما الله - عن زمان القطحل فقال:

تزعّم العرب أنه زمان كانت فيه الحجارة رطبة، أي لينة، والحسل هو ولد الفلب، وبه يضرب المثل لطول العمر، وكذلك نوح عليه السلام حيث لبث في قومه يدعوهم لدين الله - تسعة وخمسين عاما، أي أنه عمر فوق ذلك والمقصود، لو عشت طويلا أيام كانت الحجارة ما تزال رطبة قبل أن تصلب لكان كذا وكذا، وانظر إلى قوله «والصخر مبتل كطين الوحل» إنه تصوير دقيق لصهير البراكين أثناء انسيابه من حولها أثناء ثورانها.

ومن الشواهد التي تقطع بحقيقة ما نحن بصده قول الطرماح بن حكيم يفاخر بقبيلته طي:

طويل
لنا الملك من عهد الحجارة رطبة

وعهد الصفا باللين من أقدم العهد (١٧)

فقبيلته عريقة في سيادتها التي تضرب في أعماق الزمان حين كانت الحجارة ما تزال رطبة، ولعل المقصود هو عصر ما قبل الإسلام، حين كانت البراكين تثور من حين لآخر في بعض أنحاء الجزيرة العربية.

وأن تكون الحجارة رطبة، وكطين الوحل، وتستمر على تلك الحال.. أمر

مستحيل، والمقول هو أن تكون صهيرا سرعان ما يبس ويتصلب، فيكون العهد به مائلا أو سائلا، ومدة مشاهدته كذلك قصيرين (بضعة أيام) لكنهما كالفان للتحقق من التحول وإدراك العملية الطبيعية، ولوصفها ومعاينتها والحديث عنها، والطرماح - ولعل الراجز مثله - لم يشاهد البراكين ثائرة، كجيله كله، ولكنه ليس غريبا أن تتحدث الناس آنثذ عن الصهير والحجارة الرطبة، وتنسبها إلى قدم العهد.

ومن الألفاظ التي تستخدمها العرب في معنى الحرة لدالاتها على الأرض المغطاة بالحجارة السوداء «اللاية»، وهي من الأصل اللغوي (ل و ب) وهو في ما نرى وكما سنوضح - ينصرف لدلالة أصلية على معنى يؤكد ما كان يشاهده بعض العرب من صهير البراكين قبل أن يستحيل صخورا وحجارة صلبة، أي وهو بعد كطين الوحل، ورطب لين.

ولجد في شواهد العربية ذكرا وفيرا لعدد من اللابات كلابية (أولاب) ليلى ولاهتي المدينة المنورة وقد حرم الله ما بينهما^(١٨)، ومن أشعارهم في استخدام اللاية بمعنى الحرة والبركان الثائر قول قيس ابن الخطيم:

طويل

تري اللابة السوداء. يحضر لونها

ويسهل منها كل ريع وفدقد^(٢١)

لهي إذا متقدة مسطومة ببركانها
الناثر، وما يؤكد ترادف اللابة والحرة أن
المكان الواحد جاء في أشعارهم مسمى
بهذين اللفظين مضافين إلى الاسم. فحرة
ليلى في شعر القتال الكلابي^(٢٢) هي لاب
ليلى عند الطرماح، وحرة ضرغد في شعر
عبيد بن الأبرص^(٢٣) هي لابة ضرغد في
شعر عامر بن الطفيل^(٢٤).

ونجد في كتب علوم الأرض كلمة
(Lava لا) وهي - فيما يقال - يونانية -
دخلت العربية، وهي بمعنى الصهير الذي
تقذف به البراكين عاليا ثم يسيل على
جوانب فوهاتهما، وينساب ببطء مسافات
قد تطول، فيبرد على نحو تدريجي. فأى
الكلمتين هي الأصل، العربية أم اليونانية
وهل لنا بوسيلة للاستدلال غير الوسائل
المعروفة من نظائر سامية وميان أو ألفاظ
مصابقة؟ أجل، إن في استقراء اللغة وخباياها
التراث ما يسعنا إذا اشتدت بنا الفاقة.

ولتوضيح ذلك نقول، إن اللابة هي
الحرة، أي هي الغطاء الحجري الأسود ذو

التخاريب الذي يغطي بعض البقاع، الذي
كان من قبل مائعا سال على حافات فوهة
بركان ما، فيبرد واستحال حجارة كالحجارة
الموصوفة، أي أن الفرق بين اللابة و
Lava هو زمني وحسب، وهما في حقيقة
الأمر شيء واحد تقريبا، إنهما كالرجل
وهو شاب، ثم أصبح كهلا قد يسر عوده،
أو كالماء يبرد فأصبح ثلجا قد تصلب. أما
من حيث اللفظ فالكلستان سواء، حيث
تناظر الباء صوت (v) المستخدم في بعض
اللغات.

وننظر الآن في الأصل اللغوي (ل) و
(ب) الذي اشتق منه لفظ (اللابة) لنرى أنه
ينصرف لدلالة تقع على معنى اللين والتلوي
في اتصال، وهذه صفات الصهير (اللافا)
قبل تصلبها واستحالتها حجارة سوداء،
ومن هذا الأصل الملاب، وهو طيب وخلق
من مساحيق الأعشاب العطرية والدهون،
وكثيرا ما يشبه به سلح الناقة على
أليائها، ومنه اللواب، لمرض يفسد البطن
والأمعاء (يتلوى المريض به من شدة
الآثم)، وبمعنى اللعاب، ولا يكون إلا كثيفا
لزجا نسيجا، واللولب، وهو مما ضعفت فيه
الفاء (وهي اللام) وهو إلى لين واتصال
والتواء.

وقريب من هذا الأصل في لفظه

ونود أن نؤكد في ختام هذا البحث أن اللسان العربي بمفهومه الواسع يمكن الدارس في تراث العربية من الوقوف على كثير من حقائق الماضي، يربط ذلك التراث بوقائع الحاضر وما تعيه سجلاته من أحداث الزمان. فهو بذلك كشاف أمين يمكن المتبصر من استقراء الحقائق وإن تفتت بالرمال والحجارة، تماماً كما هي الحال في كثير من معالم السطح، حيث تشكل أدلة واضحة على ما كان من اضطرابات في القشرة الأرضية تخضعت عن التضاريس الحالية لهذا العالم.

ونستخلص من كل ما سلف أن اللغة خير قاسوس يحيط بالأحداث ما كان طبيعياً منها أو حضارياً، ذلك أن حدثاً ما لا يمكن أن يمر دون أن يترك أثراً على لسان، ولا سيما إذا كان ذلك الحدث من الأمور العظام.

ولقد حفظت اللغة كل ذلك، وخلّدت بالفاظ وعبارات قد تمر بأسماعنا فلا نعي ما وراءها، لأن ذلك كثيراً ما يحدث بطريقة آلية، ألا لمزيداً من التبصر في أسرار اللغة وما يستكن وراءها.

ودلالته الأصل (ر و ب) ومنه روية اللين، واللين الرائب، ولا يكون إلا كثيفاً غليظاً كاللثا، وقوم رويى إذا كانوا في سبات عميق، كأنما راہوا.

وننظر في المعاجم الاشتقاقية اليونانية فنجد أن الأصل Lava^(١٦) ينصرف لدلالة تقع بعيداً عن مدلول الالابة و Lava التي تنصرف لمعنى الصهير، حيث تشير مشتقاته إلى ماله ارتباط بالفضل وأدواته فقط، الأمر الذي يؤكد، إلى جانب ما سبق من تصرف الأصل (ل و ب) في العربية لدلالته، أصالة كلمة لابة في العربية، وأنها دخيلة في اليونانية واللاتينية وفروعها من العربية.

ويضاف إلى ما تقدم أن كلمة لابة قد وردت كثيراً في المصادر الأدبية قبل الإسلام وبعده، بينما تأخر استخدام كلمة من جنسها معربة إلى القرن الهجري الثالث، وأعني بذلك كلمة بركان المعربة من اللاتينية، وهي محرقة من Volca-nas وتعني إله النار^(١٧)، وبهذا يكون مسوغ تعريب الكلمة اتصال العرب بالأوروبيين عقب الفتح الإسلامي، حيث أضاقوها (كلمة بركان) إلى النار والحرة والالابة.

● المراجع والهوامش ●

- ١ - الكتاب الأول هو أطروحة الباحث
للدكتور سنة ١٩٧٧ لم ينشر بعد. أما
الكتاب الثاني فهو مطبوع بعمان - بالتعاون
بين دار عمار ودار الفحاء سنة ١٩٨٨م.
- ٢ - الحموي - ياقوت - معجم البلدان بناية
وستنفلد ط لا يبرز سنة ١٨٦٧، ٢/٣٥٨
وما بعدها.
- ٣ - الجاسر - حمد، المعجم الجغرافي،
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
ط ١ الرياض ١٩٧٧م.
- ٤ - انظر لسان العرب وتاج المروس مادة
(حدر).
- ٥ - الحموي ٢/٢٥٩.
- ٦ - نفس المرجع ٢/٢٦٠.
- ٧ - النابغة الذبياني - ديوانه ص ٨٣ وانظر
اللائحة في ما يلي.
- ٨ - تعادل نحو من ١٨ ميلا.
- ٩ - الدينوري - أبو حنيفة، الأخبار الطوال،
سلسلة تراثنا، ط القاهرة ص ٦١.
- ١٠ - الهمداني الحسن بن أحمد - الإكثيل - تحقيق
محمد الأكرع، بغداد سنة ١٩٧٧، ١/٣٣.
- ١١ - المسعودي - التنبيه والإشراف ص ٢٠٢.
- ١٢ - الحموي - ٢٦١/٦، Moritz S. P13.
- ١٣ - الطبري - تاريخه (ط أوروبا) ١/٢٩٨.
- ١٤ - عامي ١٣٨٨، ١٣٨٩ هـ، وكانت تتبع
تطبيقا إدارة بيثة.
- ١٥ - سورة البروج - الآية ١٠.
- ١٦ - ديوانه ٢/١٢٠.
- ١٧ - بروكلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية،
ترجمة منير الجليلي، بيروت ١/١٠.
- ١٨ - خلد البركان إذا توقفت ثورته لثمود
بعد حين. وهذا إذا توقفت ثورته إلى الأبد،
أو على الأقل إلى أمد بعيد.
- ١٩ - الثعالب - أبو علي، الأمالي ١/٢٣١.
- ٢٠ - الطرماح بن حكيم - ديوانه ص ١٩٠.
- ٢١ - انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث
النوي الشريف ١/٦٢٥.
- ٢٢ - ابن الخطيب ص ٢١.
- ٢٣ - القتال ص ٢٢.
- ٢٤ - الطرماس ص ٢٧.
- ٢٥ - عبيد بن الأبرص ص ٢٩.
- ٢٦ - ابن الأنباري - شرح المفصلية ص
٣٦٣.
- 26 - Liddell and Scott. Intermediate Greek-English Lexicon, Oxford 1968 Page 898.
- 27 - Lewis and Dhorot, Latin-English dictionary, Oxford. 1951, Page 2004.